الكوفة الحاضرة والمدرسة الإسلامية

تحقيق: وليد عبد الأمير علوان
تصوير: أحمد عبد اللطيف الملح

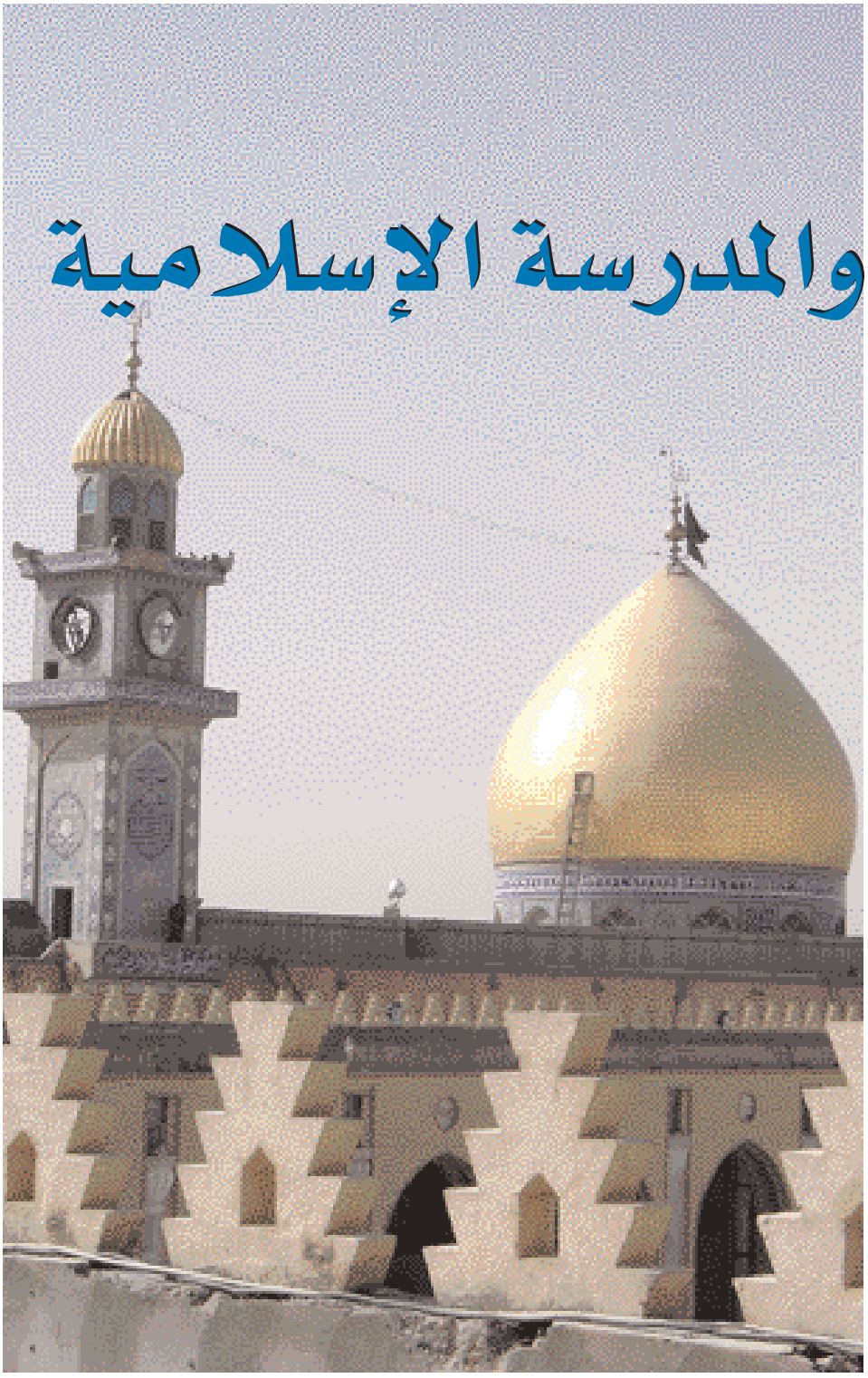

مسجد الكوفة
Kufa Mosque

لعل المؤرخ الذي وصف العراق كان على حق حين قال:"تحت كل شبر من أرض العراق حاضرة وحضارة، وفوق كل شبر مدينة ومدنية". حيث يتجلى هذا القول بهذه المدينة. الكوفة هي أهم مدن العالم الإسلامي التي اختطها المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي، والمدينة التي صارت عاصمة للدولة الإسلامية، فيها أقدم المساجد الجامعة في العراق، بعد جامع البصرة، ومنبر الإمام علي بن أبي طالب (ع) والغرفة التي عاش فيها، ومصلاه الذي استشهد فيه، وفيها المدرسة التي تخرج منها جابر بن حيان الذي يسميه الغربيون "أبو الكيمياء". نما وترعرع فيها أجمل الخطوط العربية، وهو الخط الذي كتب به القرآن الكريم، وظهرت فيها الخطوط العريضة للنحو العربي على يد أبو الأسود الدؤلي، واشتهرت مدرسته النحوية واختلفت في نهجها وأسلوبها عن مدرسة البصرة النحوية. فيها عاش 70 رجلا من صحابة رسول الله (ص) ممن شهدوا معركة بدر، كما عاش فيها عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وفيها ولد أعظم شعراء العربية (المتنبي)، حاضرة العالم الإسلامي، وهي "جمجمة العرب، ورمح الله، وكنز الإيمان، ودار هجرة المسلمين" كما وصفها الإمام علي (ع). إنها الكوفة.

الموقع والتسمية

تقع مدينة الكوفة جنوبي العاصمة بغداد بمسافة 156كم، ولا تبعد عن مدينة النجف الأشرف سوى 10كم، وهي ذات موقع جميل حيث تقع على نهر الفرات، وتحيط بها غابات من الأشجار والنخيل. وقد سميت بالكوفة على رأي البعض، لاستدارتها واجتماع الناس فيها، حيث يقولون "تكَوَّف" القوم أي اجتمعوا، ومنهم من يقول إن كل رملة يخالطها الحصى تسمى كوفة، ولأن أرضها رملة حمراء ولاختلاط ترابها بالحصى فقد حملت هذا الاسم. تمتاز أرضها بأنها سهلة وعالية حيث ترتفع 22 م عن سطح البحر، مما مكنها من أن تكون بمنأى عن فيضانات نهر الفرات.

تاريخ المدينة

تعتبر الكوفة من أهم مدن العالم الإسلامي، التي اختطها المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي، زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. وكان الغرض من تأسيسها هو أن تكون حامية عسكرية، لا يفصل ←

بينها وبين المدينة المنورة بحر. وقد بنيت بيوتها من القصب، على يد سعد بن أبي وقاص سنة 17هـ/638م، إلا أنه عند احتراقها، بنيت بالآجر واللبن على عهد المغيرة بن شعبة. كان تقسيم هذه الحامية على شكل سباعي، روعي فيه التحالف القبلي، إذ كانت كل قبيلة تسكن في سبع منها، وبقي هذا التقسيم سائداً، حتى زمن الإمام علي (ع) سنة 36هـ حين اتخذها حاضرة للخلافة الإسلامية، ثم غير هذا النظام الوالي زياد بن أبيه سنة 50هـ إلى أرباع.

برزت أهمية هذه المدينة حين اتخذها الإمام علي (ع)، عاصمة للدولة الإسلامية سنة (36هـ-657م)، ومعه عدد كبير من الصحابة الأبرار، وذلك بعد انتصاره في معركة الجمل، حيث أصبحت مركز الحركة العلمية، وساعدها في ذلك أنها كانت مركزا تجاريا، ومنزلا من منازل طريق الحج. إلا أن نجمها قد أفل عند قيام الدولة العباسية سنة 132هـ حيث بنوا بقربها مدينة الهاشمية، قبل أن ينتقل مركز الخلافة إلى بغداد سنة 145هـ حيث انتقل كثير من علمائها وشعرائها وأدبائها إلى بغداد. إلا أنه عند نقل مركز الخلافة من بغداد إلى سامراء، زمن الخليفة المعتصم، انتعشت هذه المدينة، وصارت تشمل معظم محافظات ما تسمى بالفرات الأوسط (كربلاء-بابل-الديوانية). وعندما ازدهرت مدينة النجف المجاورة لها في أواسط القرن الثالث الهجري، ازدهرت هذه المدينة أيضاً، إلا أنها بدأت تضمحل في القرن الخامس الهجري، وحل فيها الخراب. واستمر هذا الحال حتى نهاية الدولة العثمانية مطلع القرن العشرين، حيث بدأت تدب فيها الحياة.

الكوفة اليوم

تكتسب هذه المدينة أهميتها من كونها تضم ثاني أقدم المساجد الإسلامية بعد مسجد البصرة، وهو الأول في الأهمية من حيث الهندسة والبناء، حيث يقع فيه أشهر منبر في التاريخ صدح فوقه الإمام علي (ع)، بأروع الخطب البلاغية، كما يقع فيه مصلى الإمام علي (ع)، والمحراب الذي استشهد فيه، وهو يصلي صلاة الفجر سنة 40هـ كما يوجد فيه موضع سفينة نوح (ع)، حيث رست فيه بعد الطوفان العظيم، وفيه بعض المقامات للأنبياء والأولياء الذين مروا بهذا المسجد، وفيه بيت الإمام علي (ع)، الذي اتخذه مسكناً في أثناء خلافته، والبئر الذي غُسِّل من مائه يوم استشهاده، والغرفة التي عاش فيها. ويجاور هذا المسجد مرقد مسلم بن عقيل، كما تضم المدينة آثار قصر الإمارة، وهو مسكن والي المدينة.

بيت الإمام علي

يقع بيت الإمام علي (ع) ملاصقاً لقصر الإمارة، حيث تم بناؤه، بعد أن رفض السكن في هذا القصر، أيام خلافته. تبلغ مساحة البيت 300 مترا مربعا، وقد تم تجديده حديثاً، يحتوي البيت على صحن، وهو الفناء الذي كان شائعاً في بيوت ذلك الزمان، والذي ينتهي بممر طويل، فيه استدارة على جهة اليمين، وذلك ←

مدخل بيت الإمام علي

The entrance of Imam Ali House's

آثار قصر الامارة

The remains of the Palace of Emirate

دكة القضاء

Dakkat Al Qada

لحجب رؤية الغرباء من الضيوف، للنساء الموجودات في داخل الدار. عند الانتهاء من هذا الممر، هناك غرفة الإمام التي كان ينام فيها، ويستقبل الزوار من الخواص وعامة الناس والذين كانوا يأتون إليه لقضاء حوائجهم، وهي نفس الغرفة التي تم تغسيله فيها بعد وفاته، ويوجد على مقربة منها البئر الذي كانت العائلة تتزود منه بالماء . وهو نفس البئر الذي قام ولداه الحسن والحسين (ع) بتغسيله من مائه يوم وفاته. وماء البئر ذو مذاق عذب، حيث يشرب منه كافة الزوار للتبرك، ويبلغ عمق الماء فيه 10 أمتار ويتم استخراج الماء منه بواسطة الدلو. وعلى مقربة من غرفة الإمام، تقع غرفة ولديه الحسن والحسين، وتسمى الآن بـ"مكتبة الحسن والحسين" حيث تشير الروايات إلى أنها كانت مخصصة لقراءة القرآن الكريم. تحتوي هذه الغرفة على ما يصطلح عليه أهل العراق بـ"رازونة"، وهي عبارة عن خسفة صغيرة داخل الجدار، يتم فيها وضع الكتب، ويظهر أنهم كانوا يضعون فيه كتاب الله العزيز.

تحتوي الدار على غرف لسكن العائلة، حيث هناك غرفة زوجته فاطمة بنت حزام الكلابية الملقبة بـ"أم البنين"، وهي أم لأولاده الأربعة الذين استشهدوا مع أخيهم الحسين يوم عاشوراء، وفيها غرفة لبناته، كما يحتوي هذا البيت على الدكة التي تم تكفين الإمام فيها يوم وفاته.

قصر الإمارة

وهو القصر الذي كان يسكنه ولاة الكوفة، وتم هدمه سنة 72هـ من قبل عبد الملك بن مروان في الحادثة التاريخية المشهورة. يبلغ طول هذا القصر 33م، ويبلغ سمك الجدار فيه 3,5م ولم يبق منه سوى الأسس، كما أنه يحتوي على العديد من الغرف التي اندرست جميعها ولم يبق منها إلا الأثر، بالإضافة إلى السكن، فقد تم استخدامه للتخلص من معارضي الحكام، حيث شهد هذا القصر أحداثا جساما، ومنها رمي مسلم بن عقيل ابن عم الإمام الحسين، وهانئ بن عروة زعيم قبيلة مذحج منه، بعد قتلهما سنة 60 هجرية، وكانت للقصر عدة أبواب تؤدي إلى مسجد الكوفة الملاصق له، إلا أن جميعها قد طمر.

مسجد الكوفة

تم بناء هذا المسجد سنة 17 للهجرة، من قبل سعد بن أبي وقاص، وكان ثاني مسجد بني للمسلمين بعد مسجد البصرة، خارج نطاق المدينة. تبلغ مساحة هذا المسجد 12,660 مترا مربعا وله ثلاثة أبواب، وكل باب يحمل اسم قبيلة كبيرة آنذاك، وهي باب السدة الذي كان يدخل منه الإمام علي، وباب كنده، وباب الأنماط، ولبعضها الآن مسميات أخرى كـ"باب الثعبان" و"باب الرحمة" و"باب الفيل". يحتوي هذا المسجد على 60 إيوانا، عدا أواوين القبلة وعددها 14 وهي على نفس التصميم الإسلامي بأقواسه ومقرنصاته.

يتميز هذا المسجد بكثرة المقامات الموجودة فيه، حيث يعتقد بأن معظم الأنبياء قد زاروا أرض هذا المسجد، قبل تشييده، ولهم فيه مقامات، ومن هذه المقامات مقام النبي إبراهيم الخليل (ع)، مقام الخضر (ع)، مقام النبي محمد (ص)، مقام آدم (ع)، مقام جبرائيل (ع)، مقام النبي نوح (ع)، حيث تشير بعض الروايات إلى أنه قد ولد في الكوفة، وكذلك مقام زين العابدين بن الإمام الحسين (ع)، وفيه أيضا المكان الذي كان فيه الإمام جعفر الصادق (ع) يعطي دروسه الفقهية والمسمى "مدرسة الإمام الصادق"، وكذلك المكان الذي كان فيه الإمام علي يؤدي فيه الصلاة والمسمى بـ"نافلة الإمام"، كما إن فيه منبره والمحراب الذي استشهد فيه. وقد اعتاد الزوار على تأدية ركعتي صلاة الزيارة في كل من هذه المقامات لذلك فإن زيارة هذا المسجد تحتاج لبعض الوقت لكثرة المقامات الموجودة فيه. ←

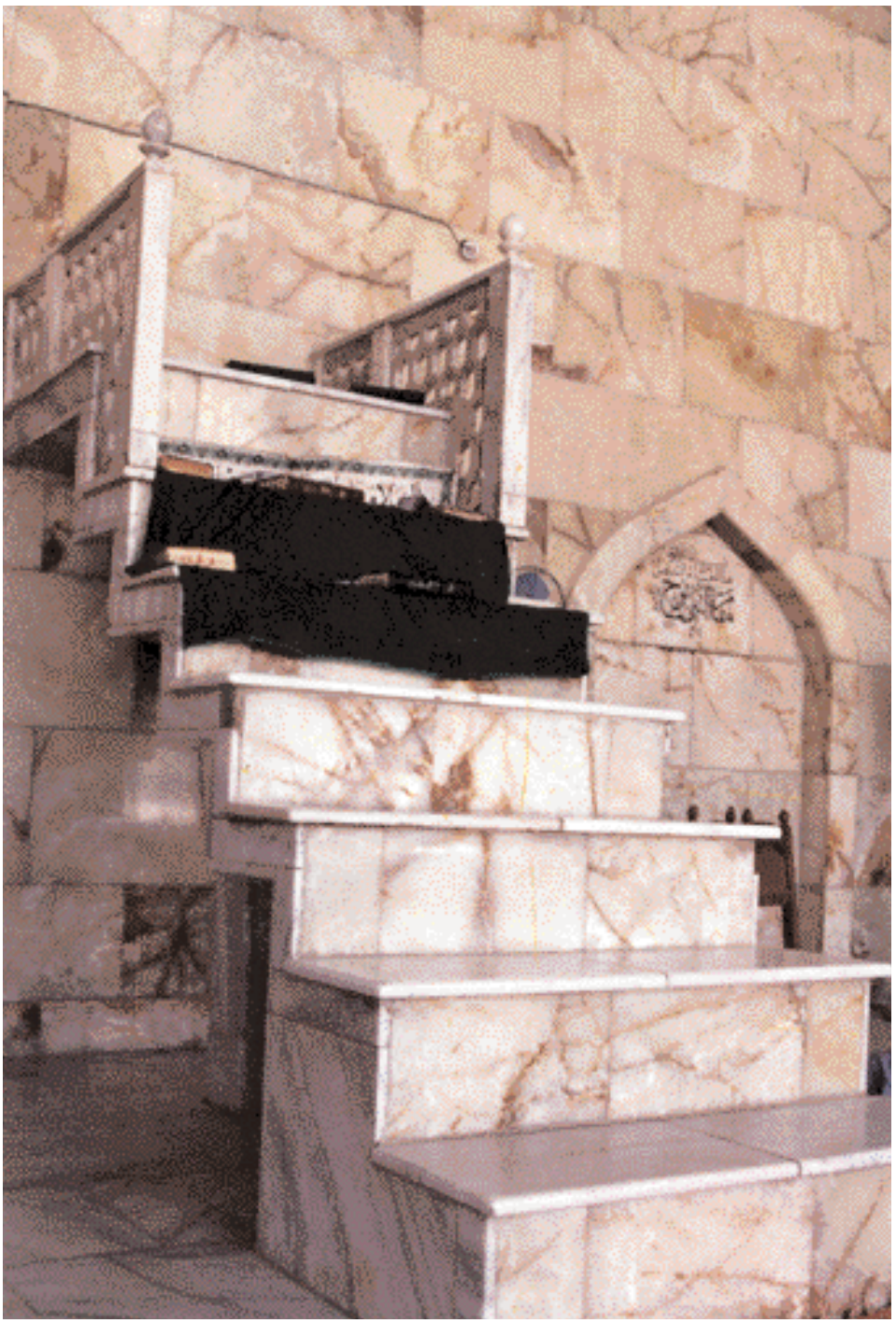

منبر الإمام علي

The minbar of Imam Ali

محراب الإمام علي بعد تجديده

The mihrab of Imam Ali after renovation

أما أكثر هذه المقامات إثارة، فهو المقام المسمى بـ "سفينة نوح"، حيث يرى بعض المؤرخين إن سفينة نوح رست في هذا المكان بعد الطوفان العظيم. يتم النزول إلى موضع السفينة، من درج يؤدي إلى ساحة مكشوفة، مثمنة الأضلاع، في كل ضلع هناك صحن، وفي داخله إيوان، يقود إلى الداخل.

ومن المقامات أيضا في مسجد الكوفة ما يسمى بـ"دكة القضاء"، وهو المكان الذي كان يجلس فيه الإمام علي، للقضاء والحكم، كما أن هناك أيضا مقام "بيت الطشت" ويقال إنه المكان الذي أنقذ فيه الإمام علي بنتا عذراء من أهالي اليمن اتهمت بالزنا، وكادت أن تقتل من قبل ذويها، إلا أنه استطاع إثبات براءتها.

أما الجزء الثاني من المشهد، حيث تفصله عن المسجد والمقامات سور عالي، فتوجد فيه بعض الأضرحة، وأشهرها ضريح مسلم بن عقيل ابن عم الإمام الحسين (ع)، وسفيره الذي أرسله إلى العراق، إلا أنه قتل من قبل والي الكوفة. الضريح على شكل مستطيل أبعاده 53 متر مربع وارتفاعه 2.5 م، وإن هذا الضريح حاله حال بقية الأضرحة في العراق، عليه شباك كبير من الفضة، يحتوي على عشر مشبكات صغيرة، موزعة على جوانبه الأربعة، وتعلوه كتيبة بعرض 25 سم. أما الروضة الموجود داخلها الضريح فمزينة أرضيتها بالرخام، وكذلك جزء من الجدار، والذي تعلوه الآيات القرآنية المكتوبة على الطابوق القاشاني، وزين سقفها بالزجاج. وعلى أقصى الزاوية اليمنى من باب الدخول، وعلى مقربة من مرقد مسلم، يقع السجن الذي سجن فيه المختار بن أبي عبيدة الثقفي ثائر الكوفة، والذي اقتص من قتلة الإمام الحسين (ع)، وهذا المكان عليه شباك من الفضة ولوحة مكتوب عليها آداب الزيارة الخاصة بالمرقد. أما في أعلى المرقد الشريف، فهناك قبة ذهبية عالية، تشاهد من بعيد، ومنارة مزينة بالقاشاني والخطوط الجميلة.

على الجهة المقابلة لضريح مسلم، وبعد اجتيازك للصحن الواسع، يقع ضريح هانئ بن عروة، حيث يتم الدخول إليه عبر ممر صغير. هذا الضريح داخل غرفة، وهو على شكل ثماني الأضلاع، يحتوي على مشبك فضي جميل، ويكاد يكون هذا الضريح، هو الوحيد بين الأضرحة الموجودة في العراق، بهذا الشكل المميز. ويوجد في أعلى الضريح قبة مغلفة بالقاشاني الأزرق، ومنارة عالية، ويحتوي في مقدمته على ثمان أقواس إسلامية، مزينة بالقاشاني والآيات القرآنية، إحداها تزين باب الدخول.

أضرحة أخرى

عند خروجك من ضريح مسلم بن عقيل، وعلى الجهة اليسرى خارج السور، يقع ضريح السيدة خديجة بنت علي بن أبي طالب، من زوجته فاطمة بنت حزام الكلابية، يحتوي هذا المرقد على باب صغير نسبيا، وعند اجتيازه هناك رواق صغير، وبعده مباشرة، وداخل غرفة صغيرة، يقع هذا الضريح، وهو عبارة عن مشبك من الفضة، صغير نسبيا، داخل غرفة مزينة جدرانها بالقاشاني والآيات القرآنية، وقد لوحظ أن اغلب زوار هذا المرقد هنَّ من النساء، اللاتي يأتين لطلب قضاء حوائجهن، حسب المعتقدات السائدة هناك، حيث يروين الكثير عن كراماتها.

ضريح ميثم التمار

على بعد عدة مئات من الأمتار غرب مسجد الكوفة، يقع ضريح الصحابي ميثم التمار وهو من أصحاب الإمام علي، قتل على يد عبيد الله بن زياد والي الكوفة سنة 61هـ وبمتاز مرقده بأنه يعج بالزوار، الذين يقدمون لقراءة سورة الفاتحة، حيث يعتقد الناس بان الحوائج تقضى في هذا المكان، لعلو منزلة ومكانة صاحبه لدى الله سبحانه وتعالى .

يضم الضريح صحنا واسع تبلغ مساحته 26,000 متر مربع، وهو يحتوي على العديد من الأواوين لإيواء الزائرين، والتي يزيد عددها عن ستين إيوانا.

أما الحرم فتبلغ مساحته 400 مترا مربعا، يتوسطه المرقد، الذي يمتاز بأنه صغير الحجم ولا يتعدى ارتفاعه متران، موضوع عليه شباك مصنوع من الفضة، والحرم تزين جدرانه النقوش والآيات القرآنية، وتعلو البناء قبة شاهقة مكسوة بالقاشاني الأزرق.

مسجد السهلة

على مسافة لا تتعدى 2كم من الجهة الشمالية الغربية من مسجد الكوفة، يقع مسجد آخر هو مسجد السهلة، والذي يقال إنه خامس مسجد ←

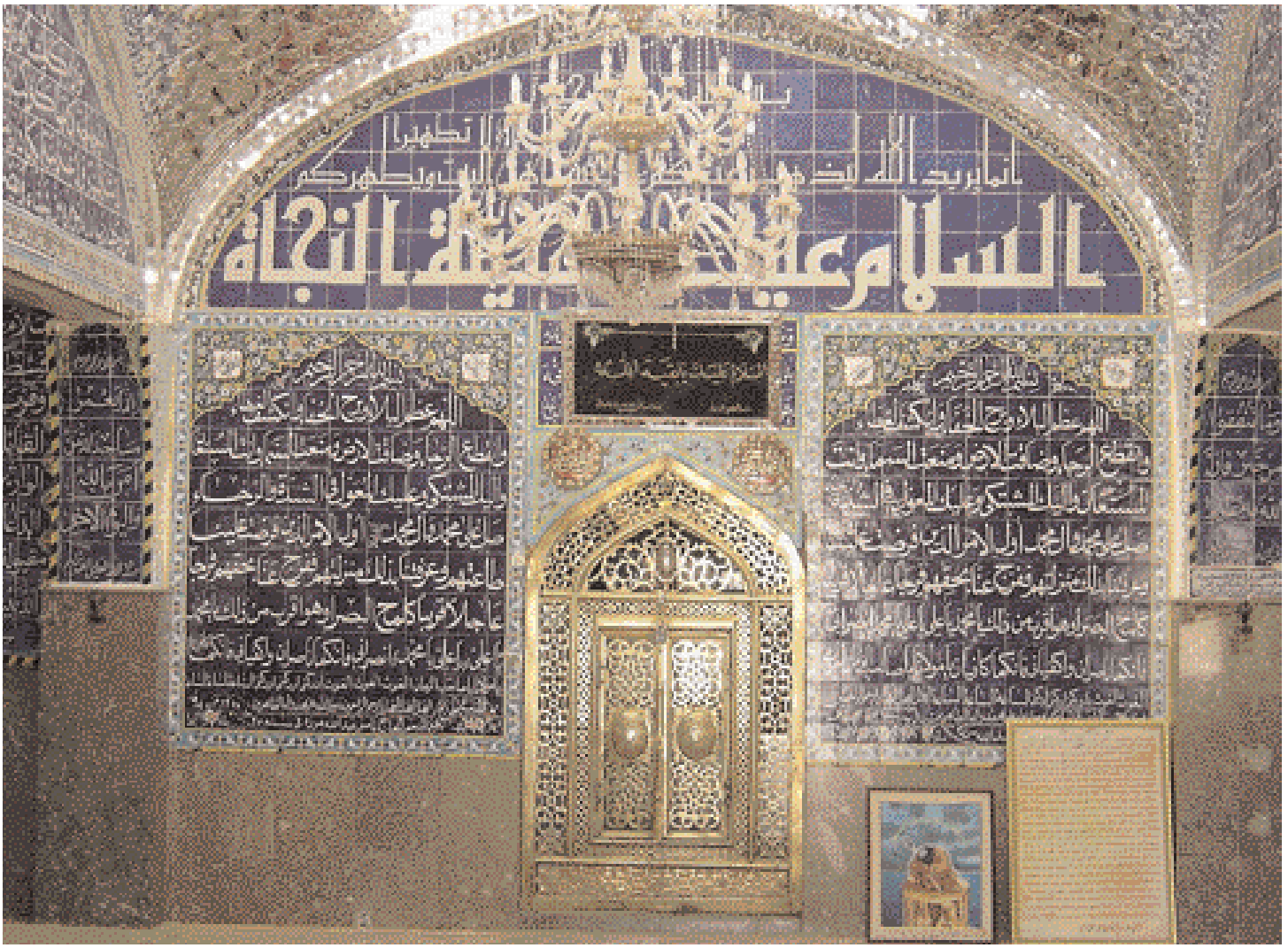

مقام صاحب الزمان

Al-Mahdi Place

في الإسلام، من حيث القدسية، بعد بيت الله الحرام، وبيت المقدس، والمسجد النبوي، ومسجد الكوفة، حيث تتحدث المرويات عن الكثير من فضائل هذا المسجد، ومنها زيارة معظم الأنبياء له. يضم هذا المسجد سبع مقامات، أولها مقام النبي إبراهيم (ع)، حيث يروى أنه خرج لمحاربة العمالقة في اليمن، من هذه المنطقة، وكذلك مقام النبي إدريس (ع)، حيث يروى أنه رفع بأمر الله من هذا المكان، الذي كان يمتهن الخياطة فيه، حيث جاء في القرآن الكريم ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾، وفيه أيضا مقام سيدنا الخضر (ع)، ومقام الإمام المهدي، ومقام الإمام الصادق، ومقام الإمام زين العابدين، ومقام الأنبياء والصالحين (عليهم السلام). توجد على كل مقام دلالة على صاحب المقام، من خلال القاشاني الأزرق المنقوش بالأبيض، إلا أن أجملها هو مقام المهدي، أو يسمى أيضا مقام "صاحب الزمان"، وهو الإمام المهدي، آخر أئمة الشيعة، والذي يروى أنه يظهر في آخر الزمان في منطقة الكوفة، حيث يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

يحتوي هذا المقام على مشبك من الفضة، تعلوه آيات قرآنية منقوشة على القاشاني، وتوجد على جهتيه اليمنى واليسرى، لوحات جميلة على شكل مربع، تحتوي على الأدعية الخاصة بزيارة المقام، وهي منقوشة بالقاشاني أيضا، والمقام داخل غرفة متوسطة، مكسوة أرضيتها بالرخام الجميل، وكذلك جدرانها وأعمدتها. يحتوي هذا المسجد على مصلى للرجال وآخر للنساء، في وسط المساحة، تعلوه قبة كبيرة مغطاة بالقاشاني، وكذلك مئذنة كبيرة شيدت في ستينات القرن الماضي.

ومما يجب ذكره هنا أنه يقال إن هناك أوقات محددة، يستحب فيها زيارة هذا المسجد، وهي بعد صلاة العشاء في مساء يوم الثلاثاء، حيث يعتقد بأن الدعاء مستجاب فيها.

إن هذا المسجد محاط بسور عالي، يحتوي من الداخل إلى العديد من الأواوين المبنية على الطراز العباسي، تبلغ مساحة كل إيوان حوالي خمسة أمتار، ويتسع كل منها لجلوس عشرة زوار، وحالها حال الأواوين الأخرى فإنها مبنية على شكل أقواس مزينة بالقاشاني.

يوجد داخل المسجد أيضا العديد من الأبنية الجميلة على شكل ممرات ضيقة وذات أعمدة مصنوعة من الطابوق المعروف بالفرشي، وباشكال هندسية متنوعة، وتجري الآن عملية تجديد واسعة لها.

وتجري الآن حملة واسعة لتطوير هذه المقامات، حيث يستخدم الطابوق الجميل في تزيينها بزخارف بديعة قلما تجد مثيلها في مكان آخر، ويتوافد الزوار لزيارته.

مساجد أخرى

بالإضافة إلى هذا المسجد، هناك بالقرب منه مسجد زيد بن صوحان، وهو من أصحاب الإمام ←

علي (ع)، والذي استشهد في معركة الجمل، وكذلك مسجد شقيقه صعصعة بن صوحان، الذي حضر تشييع جثمان الإمام علي ليلاً من الكوفة إلى النجف حيث مثواه، وهو أول من وقف على قبره من غير أهله وأولاده، ويقوم بزيارتهما كل من يقوم بزيارة مسجد السهلة.

الخط الكوفي

من الأقوال المأثورة للإمام علي: "الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً". لذلك فإنه عندما قدم إلى الكوفة، اهتم بالخط، ومنها الخط الذي صار يحمل اسم "الكوفي"، حيث شجع أصحابه على تعلمه، ومن ثم التفنن به، فكتبت به المصاحف. وقد توزعت هذه المصاحف على عدد من البلدان، ومنها مصحف موجود في النجف الأشرف في الروضة الحيدرية، وآخر في مكتبة أمير المؤمنين (في النجف الأشرف أيضا) ، وهو مصحف مكتوب على الرق، وآخر في القاهرة، وآخر في اسطنبول، وهذه كانت بداية الخط الذي تربع على عرش الخطوط العربية، ولا زال الخطاطون في البلاد الإسلامية والعربية يستخدمونه كلوحات جميلة.

جامعة الكوفة

إذا كانت مدينة الكوفة، قد برزت كمدرسة متميزة في النحو نظير مدرسة البصرة، بفضل الكسائي والفرّاء، خلال القرن الثاني الهجري، وكمدرسة في الفقه بفضل وجود الإمام جعفر الصادق (ع)، حيث تخرج منها أكثر من ثلاثة آلاف فقيه، أبرزهم النعمان بن ثابت المعروف بـ"أبي حنيفة"، صاحب المذهب الحنفي المعروف، فإن إعادة الدور الطليعي لهذه المدينة كمدينة للعلم قد تم منذ ستينات القرن الماضي، حيث أنشأت كلية الزراعة كنواة لهذه الجامعة، وتبعتها العديد من الكليات العلمية والإنسانية، ككلية الآداب، التربية للبنات، كلية الطب، كلية الإدارة والاقتصاد التي تقع عند مدخل المدينة، كلية الهندسة، كلية الصيدلة، كلية الشريعة والقانون. وتضم الجامعة أيضا مركز دراسات الكوفة، وإن هذه الكليات موزعة ما بين مدينتي النجف الأشرف والكوفة.

مشروع سياحي جديد

نظرا لوقوع مدينة الكوفة على الضفة اليمنى لنهر الفرات الأوسط (شط الهندية القديم)، فقد صارت لها ضفة جميلة على حافة النهر، تنتشر فيها غابات النخيل على مدار السنة، ويلجأ الكثير من الزوار لهذه المنطقة للراحة، وخصوصا العوائل بعد زيارتها لمدينة النجف الأشرف المجاورة لها، كما تلجأ عوائل المدينة إليها للتنزه. كذلك اتخذها الكثير من رجال الدين ومراجع الشيعة مكانا لسكناهم، ومن المقرر تحويل هذه المنطقة إلى مجمع سياحي كبير، وبكافة مستلزماته، لما له من مقومات سياحية، وذلك بعد استتباب الوضع الأمني. كما سوف يتم ربط مدينة الكوفة بالنجف بسكة حديد، وذلك لتسهيل حركة الزوار. ■

ضريح مسلم بن عقيل

The mausoleum of Muslim Ben Aqail

مرقد الصحابي ميثم التمار

The mausoleum of Maytham Attammar

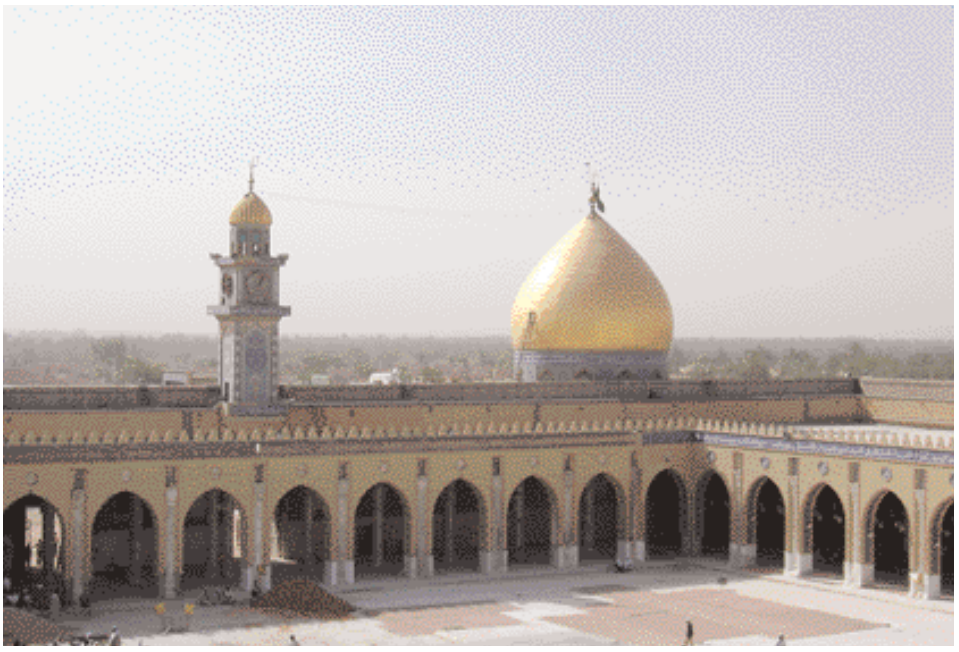

مسجد الكوفة

Kufa Mosque